البيئة في الدور الهولوسيني

والمستوطنات الأولى في الشرق القديم

بقلم

و. ج. فان لير و هـ. كونتنسون

تعريب وتلخيص فيصل الصيرفي

١ ـ البيئة في الدور الهولوسيني :

مما لا شك فيه ان التطور الذي طرأ على حياة الإنسان الاول في الدور الهولوسيني ، واستبداله أساليب الحياة التي تعتمد على صيد الحيوان ، بحياة ثابتة مستقرة ، قد حدّ من حرية تنقله ، وقيّده في مقار ثابتة للسكن . وكثيراً ما يتعرض موضوع البيئة والدور الذي تلعبه في توطين الإنسان الأول الى جدل كبير بين كتاب العصر الحاضر ، ويتساءلون عما إذا كان بالامكان رسم صورة محددة لبيئة الانسان منذ عشرة آلاف عام خلت . ومن الواضح ان أية محاولة من هذا النوع ستظل في حيز الفرض ، لكننا نستطيع ان نفترض الى درجة مقبولة من الاحتمال ان العوامل المختلفة من طوبوغرافية وحرارية ونسبة توزيع الأمطار كانت كما هي عليه اليوم بشكلها العام ، وهذا ما يجعل الحياة الطبيعية الحيوانية والنباتية متنوعة ومتباينة . كما نستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنفترض ان الحياة النباتية وخاصة الغابات كانت تتمتع بأفضل

الشروط التي تتطلبها البيئة النباتية ، وقد أدت عمليات مسح النباتات التي أجريت مؤخراً في عدد من المناطق الى رسم صورة صحيحة مقبولة الى حد ما لهذه البيئة ، كما هو مبين في الشكل (١) .

(راجع النص الأجنبي)

فباستثناء بعض الأراضي الصغيرة والمحصورة ، الممتدة على طول الساحل ذات التربة الرملية الحمراء ، والحجر الرملي ، التي تضم بعض النباتات الخفيفة مثل اشجار الاثل ، فان سفوح جبال لبنان والعلويين كانت مكتظة بالغابات ذات الأشجار المختلفة ، منها الصنوبر في السفوح المنخفضة ، والبلوط في السفوح المتوسطة ، والأرز في السفوح العالية ، بينما كانت قمم هـذه الجبال ، وجبال لبنان الشرقية التي يزيد ارتفاعها على ٢٨٠٠ متراً تضم غابات تكثر فيها أشجار العرعر .

ومن جهة أخرى فان السفوح الداخلية لجبال لبنان ولبنان الشرقية والساحل الفلسطيني والهضاب الداخلية مثل جبل العرب وجبل بلعاس كانت تضم غابات مشجرة من نوع السهوب المسماة (سافانا) التي تقل كثافة أشجارها كلما اتجهنا نحو الداخل ونحو الجنوب ، إلى أن نصل الى المناطق التي تتدنى فيها نسبة الأمطار الى ٢٠٠ مم سنوياً وتسمى حينئذ الصحارى . فجبال العلويين ولبنان والحرمون وسهل البقاع الجنوبي كانت مكتظة بالغابات ، بينما كانت فلسطين والقسم الغربي من الاردن والجنوب الغربي من سورية والشمال الغربي من سورية بقاعاً سهوبية لا تزدحم فيها الأشجار ، وكان يفصل بين قسميها في الشمال والجنوب مرتفعات جبال لبنـان الشرقية ، التي كانت تضم ممراً ضيقاً تكسوه بعض الأشجار هو وادي بردى ووادي سهل البقاع الشمالي . أما وادي العاصي ووادي قويق في الشمال فيشملان سهوباً فيها عدد من المستنقعات والبحيرات بشكل لا يختلف عن وديان الاردن وبردى والأعوج في الجنوب . هذه هي صورة عامة رسمناها تبين لنا كيف استمر انسان الدور الحجري الوسـط والحديث في هذه البيئة .

٢ ـ مستوطنات الدور الحجري الوسيط والحديث قبل العصر الفخاري :

من المرجح ان الانسان القديم لم تجتذبه الصحارى كما لم تجتذبه الغابات الكثيفة لاتخاذها موطناً لسكناه ، برغم احتمال توطنه في بعض السهول الساحلية الرملية أو في بعض وديان الأنهار . ولعله فضل الاستقرار في مناطق السهوب الداخلية لأسباب لا يتعذر تفسيرها ، ذلك لأن غابات

هذه السهوب كانت تضم أشجاراً مثمرة متنوعة يستطيع الاستفادة منها مثل اللوز والجوز والاجاص والخوخ والكثير من الحشائش وجذور النباتات التي يمكن أن يتخذها طعاماً له ، وليس من المستبعد ان هذه السهوب كانت من أغنى المناطق لصيد الحيوانات .

وهناك مسألة واحدة بقيت من غير تعليل هي انه لماذا استقر انسان ما قبل العصر الفخاري في الجنوب بصورة كثيفة تزيد كثيراً عما هي عليه في الشمال ؟ ولعل السبب في ذلك يرجع اولاً الى أن السهوب الشمالية أقل اتساعاً من السهوب الجنوبية ، ونستطيع ان نضيف الى ذلك سبباً آخر هو ان مواد البناء المستعملة في الشمال كانت عادية من النوع المعروف في بناء الأكواخ ، وقد زالت آثارها ، ولكن لا تزال تشاهد آثار اللقى السطحيــــة التي تدل على استقرار الانسان في هذه المناطق خلال العصر الذي سبق العصر الفخاري . وفي جميع الأحوال فان المناطق الجنوبية تتميز بأنها كانت تضم اصولاً من جماعات الدور الحجري الوسيط ، المسمى هنا الدور النطوفي ، الذي تفرعت عنه جماعات الدور الحجري الحديث قبل العصر الفخاري والذي لم يعرف له وجود في المناطق الشمالية ، وهكذا فقد كان الجنوب مركزاً حضارياً هاما بالنسبة للشمال الذي حجبته عن العالم المجاور مرتفعات لبنان الشرقية التي كانت بمثابة حاجز أدى الى هذه الفروق الحضارية بين الشمال والجنوب .

ولقد درج العلماء المختصون على تسمية عصر ما قبل الفخار في الجنوب بالطور النطوفي ، وفي الشمال بالطور السوري .

فأما الطور النطوفي ، فقد أمكن تحديده الآن بصورة جيدة بالنسبة لأدواته الحضارية وبالنسبة لمواقعه الجغرافية في فلسطين والاردن حتى موقع البيضا في الجنوب ، وفي سورية حتى موقع يبرود في الشمال . وقد اعتبر طريق دمشق ـ بيروت الحد الشمالي الفاصل ، ولكن مما لا شك فيه ان صيدنايا ويبرود تدخلان في النطاق الجغرافي للطور النطوفي ، ونستطيع أن نعتبر غابات البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان الشرقية الحدود الحقيقية لهذا الطور في الشمال (الشكل ١) .

وأما الطور السوري ، فلا يمكن تحديده بصورة جيدة ولا زالت بقاياه في حيز الفرض ولم تعرف أصوله حتى الآن ولم يكتشف الباحثون في هذه المنطقة أية آثار ذات شأن تعود الى الدور الحجري الوسيط ، باستثناء موقعين عرفا في الوقت الحاضر في الشمال هما رأس شمرة

(كونتنسون ١٩٦٣) ، وبقراص على الفرات التي ثبتت علاقاتهـــا الوشيجة بشمال العراق (فان لير و كونتنسون ١٩٦٣) . ويتميز الطور السوري بوفرة الأدوات الحجرية المستعملة مثل قصعات المرمر والمكاشط من جميع الأنواع وخاصة ما كان منها منتهياً بشفرة ، والفؤوس المجلوة والأدوات المصنوعة من حجر الاوبسيديين ، وهذا كله لا نجده في الطور النطوفي .

ومن الناحية الجغرافية فان الطور السوري كان يشمل منطقة واسعة تضم القسم الشمالي من سهوب البحر الأبيض المتوسط في سورية الشمالية والعراق وتمتـــد الى الصحراء على طول الأنهار الرئيسية .

الا انه لا بد من وجود حلقات بين الطرفين المذكورين ، فقد انتقل استعمال حجر الاوبسيديين الى الجنوب في تاريخ مبكر ، وذهب الكثيرون إلى ان البيت المربع هو ابتكار سوري حل مكان البيت المستدير في الجنوب ، وكذلك فان ظهور الفؤوس المجلوة في موقع الرماد في تاريخ مبكر يدل على اتصال وثيق بالطور السوري . ومن الراجح ان طريق الاتصال هذا لم يكن عبر الطريق الساحلي الذي كان ولا شك مليئاً بالغابات الكثيفة ، كما لم يكن عبر الصحراء المقفرة ولكنه كان عبر السهوب الداخليـــة ماراً بوديان بردى ـ البقاع ، في سلسلة لبنان الشرقية (الشكل ١) . ومما يؤكد ذلك ظهور الصحاف الحجرية في الأماكن الواقعة بين الرماد ورأس شمرة ، حيث تظهر في سويات ما قبل العصر الفخاري في موقع الرماد ، بينما تظهر سويات العهود الأولى من العصر الفخاري المشوي في موقعي رأس شمرة وسوكاس . وليس من شك في ان انتشار هذه الأدوات الحجرية كان عبر الطريق الداخلي ، وربما كان باتجاه الشمال . ومن الواضح ان وجود موقع الرماد على هـــذا الطريق الداخلي ، في جنوبي سلسلة لبنان الشرقية مباشرة ، يجعل منه مركزاً ملائماً جداً للتبادل الحضاري .

٣ ـ مستوطنات الدور الحجري الحديث الفخاري :

لقد تم انتشار حضارة العصر الحجري الحديث نحو الجنوب بخطى بطيئة ، ومن المعتقد ان ذلك قد استمر حوالى الف عام يشمل المسافة من رأس شمرة الى جريكو ، وهذا مما يدل على ان الدور الحجري الحديث انتقل بشكل حضاري لا بشكل غزو قبلي ، يؤيد ذلك اختلاف

الألوان الفنية بين موقع وآخر ، لدرجة اختلفت معها أنواع الأدوات الفخارية عندما انتهت الى فلسطين ، مثل فخار الرماد وفخار الجولان وفخار جريكو المدهون (الشكل ٢) .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فان صناعة الفخار لم تكن الى تعبيراً واحداً عن الكثير من الافكار والابتكارات التي تسربت الى الجنوب ، ويمكن أن نضيف الى ذلك فكرة ازالة الغابات مثلا ، ليتخذ منها الانسان مقراً لزراعته ، بعـــد أن لجأ لأول مرة إلى زراعة الأرض بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، فأزال هذه الغابات باحراقها وباقتلاع أشجارها ، بعد أن كانت عائقاً طبيعياً تقف في وجه أعماله الزراعية ، واستطاع أن يستقر في أي مكان يراه ملائماً ، بشرط ان تتوفر فيـــه التربة الجيدة والمياه ، وفي الواقع فقد نجم عن ذلك تحول الانسان الى المواقع ذات التربة الخصبة في وديان الانهار والسهوب المكسوة بالأشجار مثل حماه ، وفي السهول الساحلية مثـــل بيبلوس وتبات الحمام وسوكاس . وجميع هذه التلال تضم في قاعها سويات من الدور الحجري الحديث الفخاري ، ونستطيع ان نذهب الى الاعتقاد بأننا قد نجد سويات مماثلة في سائر التلال الرئيسية الهامة التي لم تكشف عنها معاول الحفر بعد . ومنذ ذلك التاريخ ، أي منذ ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد ، أصبح الطريق الساحلي الشريان الرئيسي للاتصال بين الشمال والجنوب ، واستمر الحال كذلك عبر العصور التاريخية التالية .

خاتمة :

لقد أمكننا التوصل الى هذه المعلومات والنظريات التي نوردها في هذا المقال بنتيجة الحفريات التي أجريت في موقع الرماد خلال شهر كانون الأول ١٩٦٣ ، وخلال الجولة التي قمنا بها في سورية الشمالية في شهر نيسان ١٩٦٤ . ولا شك ان هذه المعلومات والنظريات تفتقر الى دليل مادي تظهره لنا الحفريات المقبلة فتدعمها أو تنقضها .



Fig 1· Holocene Vegetation and Pre-Ceramic Settlements